﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: 10 - 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تعقيب قول الكُفّار بعضهم لبعضٍ بَعدَ ذِكرِ قولهم لخزنةِ جهنَّم

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى ما خاطب به أهلُ النّار خزنتَها نادمين على ما فرَّطوا؛ أعقب ذلك بذِكْرِ ما قاله بعضُهم لبعضٍ وما دار بينَهُم من حديثٍ بعدَ ذلك؛ زيادةً في إيلام نفوسهم، وتعميقِ شُعورِهم بالنَّدم، وإظهار مَقْتِهم لأنفُسِهم بألسِنَتِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسُحۡقٗا﴾، أي: بُعْدًا، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ[2]، يقال: سحق يسحق سُحقًا للبُعد، والسَّحيق لِما طال بُعدُه، ومنه السَّحوقُ، وهي: النَّخْلَةُ الطَّويلَةُ، وسُمّيَتْ بذَلِكَ لِبُعدِ أعلاها عَنِ الأرضِ[3]، والمعنى في الآيةِ: فَبُعْدًا لَهُم مِن رَحْمَةِ اللّه تَعالى[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ شِدَّة حَسْرَةِ الكُفّار في ذلك اليومِ العَصيبِ

ثُمَّ يُبيِّن اللّهُ تعالى شِدَّة حَسْرَتِهم في ذلك اليوم، عندما يقولُ الكافرونَ - معترفين بالحقِّ -: لو كُنّا في الدُّنيا نسمَعُ سَماعَ تَدبُّر، أو نعقِلُ عقلَ انتفاعٍ واهتداءٍ؛ لما كُنّا اليوم في عِداد المُخلَّدين في النّار، فاعتَرَفوا بذُنوبِهم الَّتي استَوجَبَتْ لهم الخُلودَ في السَّعيرِ، فجاء الحُكْمُ عليهم بالإبعادِ عَن رحمةِ اللّه تعالى[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سحق)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 419.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 213، وابن عادل، اللُّباب: 19/ 242.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 340، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 212، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾:

العطف هُنا للتَّشريك في الحكم، أي: إنَّ كُلًّا مِن القول السّابق وهذا القولِ مِن جُملة قولهم، مع الاختلاف في المُرادِ من القولِ، وفيمن يُقال له، فالأوَّل - باتِّفاقٍ -: قولٌ لخزنة جهنَّم، والآخر: قولٌ لخزنة جَهنَّم أو لبَعْضِهم بَعْضًا، أو قال كُلُّ واحد لنفسِه، ولمّا كان الجميعُ يقول ذلك لنَفْسِهِ، أو يقول بعضُهُم لبعضٍ؛ أخَذوا الحُكمَ الجَماعيَّ.

التَّشريك في الحُكْمِ بينَ القول السّابق وهذا القولِ

بلاغة التَّعبير بالفعل الماضي (قالوا):

في التَّعبير بالفعل الماضي (قالوا) دلالةٌ على تحقُّق ذلك؛ لأنَّ كُلَّ ذلك حكاية عَمّا سَيحدُث في النّار يوم القيامة، وهو لَم يحدُث، فيكونُ إنَّما عُبِّر بالفعل الماضي؛ لإفادَةِ تَحَقُّق ذلك وحدوثِهِ في المُستقبل.

الدَّلالة على تَحَقُّق ذلك وحدوثه في المُستقبل

سِرُّ تكرار (القول) في الآيات الكريمةِ:

أُعيد فعل القول في قول اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ مُغاير لجوابهم عَن سُؤال خزنة جهنَّم، وإنَّما هو حديثٌ جرى بينَهُم في النّار؛ تعبيرًا عن الحسْرَة والنَّدم، أي: قال بعضُهُم لبَعْضٍ، وهو نظير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38]، وذلك لتوكيد الخبَرِ وفْقَ الوجهين السّابقين في بيان موقِعِ جُمْلَةِ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾[1].

الدَّلالة على أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ مُغاير لجوابهِم عَن سُؤالِ خزنَةِ جهنَّم

سِرُّ استعمال ﴿لَوۡ﴾ في مقام التَّمنّي:

جيءَ بـ ﴿لَوۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾؛ لأنَّها أكثَرُ ما تُستعمل في التَّمنّي؛ مرادًا به التَّحَسُّرُ والتَّندُّم، ولذلك حذَّر الإسلامُ مِن استِخدامِ (لَوْ)؛ إذا جيءَ بها على وجهِ النَّدَمِ والحسرةِ،

الدَّلالة على التَّمنّي المُصاحِب للتَّندُّم والتَّحَسُّر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 27.

وفي الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "فلا تَقُل: لَو أنّي فَعَلْتُ؛ كانَ كَذا وكَذا، ولَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وما شاءَ فَعَلَ، فَإنَّ لَو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ"[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُنَّا﴾ مادَّة وصيغة:

السَّمعُ والعقلُ من طَبْعِ الإنسانِ وجِبِلَّته

﴿كُنَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا﴾ دالَّةٌ على لزوم الأصلِ الطَّبيعيِّ في الماضي، أي: بِما هو لَنا بمنزلةِ الغَريزَةِ[2]، وناسب التَّعبير بـ(كان) ماضيًا في ﴿كُنَّا﴾؛ لأنَّ (لو) للتَّحَسُّر والتَّندُّم والتَّحَسُّب، والتَّندُّمُ إنَّما يكون على ما فاتَ ومَضى، والتَّعبير بالكونِ هاهُنا يَدُلُّ على أنَّ السَّمع والعقلَ أمرٌ جِبِلِّيٌّ موجودٌ في الإنسانِ خِلْقَةً، والمعنى: لو كُنّا على ما نَحْنُ فيه من جِبِلَّة وطبيعَةٍ.

دلالة مجيء اسْمِ ﴿كُنَّا﴾ مجموعًا:

الدَّلالة على الفاعلين لمُقابلة الجَمْعِ قبلَهُ

التَّعبير باسْم (كان) جَمْعًا - وهو الضَّمير (نا) - دالٌّ على الفاعلين، وذلك لمُقابلة الجَمْعِ قبلَهُ، فكأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم قالَ ذلك، ومعلوم أنَّ مُقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمةَ آحادًا، فقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا﴾، أي: قال كُلُّ واحد مِنْهُم: لو كنتُ أسْمَعُ، أو أعْقِلُ؛ ما كُنْتُ في أصحاب الجحيم، فَكُلُّ واحد منهم يتحَسَّر على نفسِه، ويتندَّم، ويُخبر غيرَهُ معَهُ، فيَجِده مثلَه.

دلالة التَّعبير بالسَّماع دون الاستماع:

الدَّلالة على يُسر السَّمع وسهولته

السَّمع: عَمَلُ الأذُن، وهو وصول الصَّوت إليها، ووصولُهُ يكون مِن دون إجهادٍ أو مَشَقَّة من السّامع، بخلاف الاستماع، فإنَّه يُهيِّئ نفسَهُ للسَّمع، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 204]، أي: هيِّئوا آذانَكُم وأنْفُسَكُم للسَّمع، فالتَّعبير بالسَّمع بَدَلَ الاستماع دالٌّ على أنَّهم لو أعملوا أدْنى درجات الإدراكِ بالأُذُن؛ لأقلعوا عن هذا الباطِلِ، ولعلموا ضلالَ ما هُم عليه.

(1) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2664).
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 237.

دلالة الجمع بين السَّمع والتَّعقُّل في مقام الهدايةِ:

أساس الصَّلاح يقوم على حُسن التَّلقّي وحسن التَّفكُّر

نَفى الكافرون عن أنفُسِهم أسبابَ الهدايةِ وطُرُقَها، وهي: السَّمعُ لِما أنزَلَ اللّهُ تَعالى على أنبيائه، والعقلُ النّافع الذي يهدي صاحبَهُ إلى حقائق الأمور، ويحثُّه على اختيارِ الخَيْر، ويَصْرِفُه عن كُلِّ ما عاقِبَتُهُ مذمومَةٌ، فكانوا - في حَقيقَتِهم - بلا سَمْعٍ نافِعٍ ولا عَقْلٍ راشِدٍ، وهذا على الضِّدِّ من حالِ أهل اليقينِ والعِرْفانِ، وأصحابِ الصِّدق والإيمان؛ إذ قوَّوا إيمانَهم بالأدلَّة السَّمعيَّة، فسمعوا ما جاءَ مِن عند الله تعالى، وجاء به رسولُه ﷺ سماعَ علمٍ ومعرفةٍ وعمَلٍ، كما استدلّوا بالأدلَّة العقليَّة التي تُميِّز بين الهدى والضَّلال، والحَسَنِ والقَبيح، والخير والشَّرِّ، وهم في درجات إيمانِهم على قَدْرِ ما وفَّقهم اللّهُ تعالى لَهُ من الجَمْعِ بين نور المَنقولِ وسلامَةِ العُقول[1].

ويُستفاد من هذه الآية أنَّ أساسَ الصَّلاح يقوم على حُسن التَّلقّي وحسن النَّظر، وأنَّ الأثر والنَّظرَ - أي: الدَّليل النَّقليَّ والقياس العقليَّ - هُما ركنا الهدايةِ وأصلُها، فالسَّمع والعقل هما أساسُ العلم، وبهما تُنال معارِفُهُ، وتتحَقَّق ثمراتُه[2].

سِرُّ اختيار السَّمع والعَقْلِ دون الإبْصار:

بيانُ أنَّ موضع الأسفِ هو عدَمُ سماعِ أقوالهم وعـدمِ تعـقُّلِ معانيها

اختيرَ السَّمع والعقل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ دون البَصر؛ لأنَّ التَّكليف الشَّرعيَّ يدور عليهما؛ إذ سماعُ دعوة النَّذير هو أوَّل ما يَرِدُ على أسماع المنذَرين، ثُمَّ يعرضونَها على عقولهم ليتدبَّروها، ولم يُذكر البصَرُ هُنا؛ لأنَّ المقام يتعلَّق بتكذيبهم لرُسُلِهم، ولا مدخَلَ للبصَرِ في ذلك، فكان موضع الأسَفِ هو عدمَ سماعِ أقوالهم وعدمَ تعقُّل معانيها[3]، وكأنَّ خزنة جهنَّم قالوا لهم

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 875.
(2) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1/ 59، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 238، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 195.

عِندَ توبيخِهم: ألم تَسمَعوا آياتِ رَبِّكُم، ولم تَعقِلوا معانيَها، حتَّى لا تُكَذِّبوا بها؟ فجاء جوابُهم على هذا النَّحوِ[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَوْ﴾ دونَ الواو:

التَّنبيه عَلى أنَّ أحدهما سَبَبُ النَّجاة؛ لاستلزامه الآخر

جاء التَّعبير بـ ﴿أَوْ﴾ هنا - وهي دالَّةٌ على التَّقسيم - دون الواو، فلم يَرِدِ النَّظم القرآنيُّ: (وقالوا لو كُنّا نسمع، ونعقل)؛ للدَّلالة على أنَّ كُلًّا منهما مُستقِلٌّ قائِمٌ مقامَ إفادة الحُجَّة وإقامة الدَّليل؛ تنبيهًا عَلى أنَّ أحدَهُما سببُ النَّجاة؛ لاستلزامه الآخر، وكأنَّه ترديدٌ في العبارة[2]، فإنَّ الذي يسمَعُ كلامَ الرُّسل يجِبُ عليه أن يَعيَه وأن ينصاعَ لَهُ، والذي لَم تَصِلْهُ دعوةُ رسولٍ ولا إنذار مُنذرٍ؛ عليه أن يُفكِّر فيما حوله من دواعي النَّظر التي يعيش حولها في كُلِّ وقت، فَكُلٌّ منهما تقومُ بهِ الحُجَّة على صاحبه، فكأنَّهم جمعوا بَيْنَ إقامة الحُجَّة من جهتين؛ بِعَدَمِ إعمال الأُذُنِ بالسَّمع المُعتبر، وعدمِ إعمال القَلبِ بالفَهْمِ المُعتَبَر[3].

توجيه تقديم السَّمع على العقل في هذا الموضع وغيره من القرآن الكريم:

في مقام الإنذار تقدَّم السَّمع الذي يُتلقّى به كلام النُّذر، ثُمَّ العقل الذي يعقل به ما يقولونه

قُدِّم السَّمع في القرآنِ في سياقِ الإنذارِ أو البلاغ أو التَّكليف على العَقلِ أو البَصَرِ؛ لأنَّه بوّابة العلم، ولأنَّه تقوم الحُجَّة به مُنفرِدًا، فالأصمُّ لا تقوم الحُجَّة عليه إلّا على مقدار ما يفهم بالإشارة، ولذلك يجِبُ تكليفُ الأعمى، ولا يجِبُ تكليفُ الأصَمِّ إلّا على قَدْر ما يفهم بالإشارةِ؛ إن كان يراه، واحتَجَّ بهذه الآية مَن فَضَّل السَّمعَ على البصَرِ، فقد دَلَّ قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، على أنَّ للسَّمعِ مَدْخلًا في الخَلاصِ مِن النّارِ والفَوزِ بالجنَّةِ، والبصَرُ ليس كذلك، فوَجَب أن يكونَ السَّمعُ أفضَلَ[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 588، والسُّيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل، ص: 270.

ولمّا كان السَّمع عملَ الأُذن؛ دَلَّ ذلك على أنَّ التَّعقُّل عملُ القلب، ولذلك جمعَهُما الله ﷻ في سورة الحَجِّ مَدلولًا عليهما بِباءِ الآلَة، في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46]؛ لأنَّ السَّير في الأرض يَحْتاجُ إلى نوع تَفَكُّر، وتَدَبُّر، فقدَّم هناك القلوبَ التي تَعقِلُ على الآذان التي تسمع، بينما في آية سورة الملك، فالكلام في إنذار النُّذر وإرسال الرُّسل ودَعْوَتِهم، وهذا يُناسب تَقَدُّم السَّمع الذي يُتَلَقّى به كلامُ النُّذر، ثُمَّ العقل الذي يُعقَل به ما يقولونه له، وفي آية الحجِّ؛ لمّا كان السَّير في الأرض والنَّظر فيها؛ قدَّم تعقُّل القلبِ على سماع الأذن، وهُنا لمّا كان الكلامُ على إنذار الرُّسل؛ قَدَّمَ سماع الأُذن على تعقُّل القلب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

السَّماعُ رَسولُ الإيمانِ إلى القَلْبِ وداعيهِ ومُعْلِمُهُ

ومِن وجوه تقديم السَّمعِ على العقلِ أنَّ العقلَ بمَنزلةِ الكُلِّيِّ، والسَّمعَ بمَنزلةِ الجُزئيِّ، فرَعْيًا للتَّرتيبِ الطَّبيعيِّ قُدِّم السَّمع على العقل؛ لأنَّ سمْعَ دَعوةِ النَّذيرِ هو أوَّلُ ما يَتلقّاهُ المُنذَرون، ثمَّ يُعمِلون عُقولَهم في تدبُّرِها، فالمدعوُّ إذا لَقيَ الرَّسولَ؛ فأوَّلُ المراتبِ أنَّه يَسمَعُ كلامَه، ثمَّ إنَّه يَتفكَّرُ فيه، فالسَّماعُ رَسولُ الإيمانِ إلى القَلْبِ وداعيهِ ومُعْلِمُهُ، فلمّا كان السَّمعُ مُقدَّمًا بهذا السَّببِ على التَّعقُّلِ والتَّفهُّم؛ لا جَرَمَ قُدِّم عليه في الذِّكْرِ[1].

دلالة التَّعبير بالكونِ مَرَّة أخرى في ﴿كُنَّا﴾:

الإيماءُ إلى خُلودِهِم في النّار

في قوله تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، أي: ما كنّا مُلازمينَ لأصحابِ السَّعير، وما كان شأنُنا أن نكونَ مِن أهلِ النّار أبدًا لو سَمِعْنا، أو عَقَلْنا، فكان التَّعبيرُ بفِعْلِ الكَوْنِ مفيدًا خلودَهُم في عذابِ جهنَّمَ.

(1) ابن القيِّم، مدارج السّالكين: 1/ 478، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.

دلالة التَّعبير بحرفِ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾:

الإشـــارة إلى إحاطة النّار بهم من كُلِّ جانب

في التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾، في قول اللّه تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ دلالةٌ على تَوسُّطِهم النّارَ، وأنَّهم يتقلَّبون فيها، ولا يخرجونَ عَن وسَطِها؛ لأنَّ ﴿فِيٓ﴾ تدلُّ على الظَّرفيَّة، وذلك مفيدٌ إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، فهو يُشير إلى إحاطة النّار بهم من كُلِّ جانبٍ.

سِرُّ التَّعبير بالصُّحبة في هذا المقامِ:

الدَّلالة على قوَّة المُلازمة وشدَّتها وطولِها

أصحاب: جمع صاحبٍ، والصّاحب هو الملازم للشَّيءِ، ولا يتركُ الشَّيءَ إلّا لعارضٍ، فيُقال: صاحب البيتِ، أي: لا يترك البيتَ إلّا ببيعِهِ أو بموتِهِ ونحو ذلك، فالصُّحبة تدلُّ على قوَّة المُلازمة وشدَّتها وطولها، وفي قول اللّه تعالى عن الكفّار: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إيماءٌ إلى طولِ ملازَمتِهم النّارَ على وجهِ الخلودِ الأبديِّ.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾:

تـهـويـلُ صـورَةِ عذابِ النّار

السَّعير في قول اللّه تعالى: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو العذاب المُستَعِرُ، وأصلُهُ: اشتعال الشَّيءِ واتِّقادُهُ وارتفاعهُ، والسُّعار: حَرُّ النّار[1]، ومنه السُّعار، وهو الجنون والهَيَجان، وكلمة ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ يجوزُ أن تكون على وجهِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّة، بحيث شُبِّهت النّارُ برَجُلٍ يصيبُهُ سُعارٌ وجنونٌ، أو بحيوانٍ يصيبه سُعار وهيجان، ورُمِزَ إليه بشيء من لوازمهِ، وهو السُّعار، وفي هذا مِن تهويل صورةِ العذابِ ما فيهِ.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ فصيحة، تُفصح عن جملةٍ مُقدَّرة، تقديرها: لمّا قالوا ذلك؛ ظهر، وتبيَّن أنَّهم قد أقرّوا هناك بذُنوبِهم، أي: فَهُم أهلٌ لِما نَزَلَ بِهِم مِنَ العذاب، واستَحَقّوه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سعر).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.

سِرُّ إفراد الذَّنب في هذا المقامِ:

الإشـارة إلى أنَّ جميعَهُم بَلَغوا الغايَةَ نَفْسَها في التَّكذيبِ

لم يُجمَع لفظُ الذَّنب؛ لأنَّه في الأصلِ مَصْدَرٌ، ومن التَّناسب في سياق الآية: إفراد كلمة الذَّنبِ في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ لِما فيه من الإشارة إلى أنَّ جميعهم بلغوا الغايةَ نفسَها في التَّكذيب، أو لأنَّ إفراده أدعى للتَّحذير؛ إذ يَشْمَلُ القليلَ والكثير، والجليلَ والحقيرَ من الذُّنوب على حدٍّ سواء[1].

دلالة الفاء في ﴿فَسُحْقًا﴾:

الـدَّلالـة على السَّببيَّةِ التي أورثَتْهُم هلاكًا وبُعدًا

جاء السّياق مُناسبًا لورود فاء السَّببية، في قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم جَديرونَ بأن يُدْعى عليهم بالإبعادِ والهلاك، فالفاءُ هُنا للتَّسبُّب، أيْ: بسبَبِ اعترافِهم بذُنوبِهم واستِحقاقِهم العذابَ؛ دُعي عليهم بالسَّحق[2].

التَّعبير باسم المصدر (سُحقًا):

زيـادة وقـع الإيـلام النَّفسيِّ فوق ما هُم فيه مِـنَ الـعـذاب الحِسّيِّ

السَّحق: اسم مصدرٍ بمعنى البُعد، أي: أبْعَدَهُم الله تعالى إبعادًا مِن رَحمَته. ويَحتَمِلُ أن يكون المقصودُ بِهَذا الدُّعاء التَّعجيب من حالِهم، كما يُقال: قاتلهُ اللهُ تَعالى، وويلٌ له في مَقام التَّعجُّب. وقيل: هو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ، أي: ألزمهم اللهُ بُعدًا وهلاكًا، وقد جيء باسم المصدر (سُحقًا)؛ لزيادة وقع الإيلام النفسيِّ فوق ما هُم فيه من العذاب الحِسّيِّ[3].

دلالة اللّام الدّاخلة على (أصحاب):

الـدَّلالـة على التَّقوية والتَّبيين

اللّام الدّاخلة على كلمة (أصحاب)، في قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، هي لام التَّقوية؛ إذا اعتُبِر لفظُ (سُحقًا) دعاءً عليهم بالإبعاد؛ وذلك لأنَّ المصدرَ فرعٌ في العمل عن الفعل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 239، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 150.

فتُقَوّيه اللّامُ. ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللّام لامَ التَّبيين؛ لتأكيد ارتباطِ العامِل بمَعْمولِه، كما في قولِهم: شُكرًا لك، وبهذا يكون كُلٌّ من لفظ (سُحقًا)، واللّام المُتَّصلة به قد استُعمِل في مَعنَيَيه[1].

سِرُّ التَّعبير بأصحاب السَّعير دون التَّنصيص على فريقٍ بعَيْنِه:

تحقيقُ الإيجازِ والمُبالغةِ والتَّعليل

المرادُ بأصحاب السَّعير في قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: الشَّياطينُ، ومَن دخَلَ في عِدادِهم بطريق التَّغليب، وهذا التَّغليبُ جاء لتحقيق الإيجازِ والمُبالغةِ والتَّعليل؛ إذ غُلِّب الشَّياطين على الكُفّار، مع أنَّ الظّاهر أن يُقال: فَسُحقًا لهُم، أي: للقائلين: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا﴾، وفي هذا التَّغليبِ اختصارٌ، ودلالة على المُبالغةِ في إبعاد الفريق الأوَّل أيضًا؛ لأنَّ ذِكْرَ كُلِّ فريق على حِدة قد يوهم تفاوتًا في الإبعاد، فيكون إبعادُ الكُفّار دون إبعادِ الشَّياطين؛ لاعتبار الشَّياطينِ أصلًا والكُفّارِ مُلْحَقين بهم، في قوله: ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فلَمّا جُمِعوا في الحكم؛ دَلَّ ذلك على أنَّ إبعاد الكُفّار لا يقلُّ عن إبعاد الشَّياطين، بل إنَّ تغليبَ أصحاب السَّعير - وهم الشَّياطين - على الكُفّار يجعل الكُفّار بمنزلتهم، بل كأنَّهم هُم أنفسُهُم، وفي ذلك غايةُ المُبالغة. وأمّا وجه التَّعليل؛ فمجيء الحُكم مُعلَّقًا على الوصف ومُترتِّبًا عليه، وذلك يوحي بأنَّ الإبعادَ سببُهُ كونُهُم من أصحاب السَّعير، أي: من أهل النّار المُستَعِرَة[2].

سِرُّ التَّذييل بجُملة ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يشمل المخاطَبين بالقرآن، فجاء هذا الدُّعاء في حكم التَّذييل؛ لِما فيه من شمول المعنى وعمومه؛ تبعًا لما سَبَقَ من الجُمل قبله[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 28، 29.
(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 229، والشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 220، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 14.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 29.

❁ الفُروقُ المعجميَّة:

السَّماع والاستماع:

الاستماع لِما كانَ بِقَصْدٍ، ولا يَكونُ إلّا بِالإصْغاءِ، والسَّماع يَكونُ بِقَصْدٍ وبِدونِهِ

السَّماع - وكذا السَّمع -: مُطْلَقُ إدراك الحروفِ والأصوات، والاستماعُ: طَلَبُ السَّمع بالإصغاء بالأذُنِ، أي: تَقَصُّدُ السَّماع[1]، والسَّمع ثلاث درجاتٍ: إحساس بالصَّوت دون فَهْمٍ، كسماعِ الدَّوابِّ السّارحة؛ إذا دعاها راعيها إلى ما يُرشدها، فلا تسمع إلّا دُعاءَه ونداءه، ولا تَفهم ما يقول[2]، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]. وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]. وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم والاقتناعِ والإيمان والطّاعة، وهي أعلى درجات السَّمع التي تُمنَحُ للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿*إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، وقولِهِ تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الرّوم: 53].

والاستماع يكون على درجتين: إحداهما: استماعُ انتفاعٍ وانقيادٍ وطاعة، وهو استماعُ المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: 18]، والمقصود منه هُنا: فَهْمُ المَعْنى مع القبول والانتفاع. والآخَرُ: استماعٌ لا يَنْتُجُ عنهُ انتفاعٌ ولا قبول ولا انقيادٌ، وهو استماعُ الكافر والمُنافق، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]،

(1) أبو هِلالٍ العَسْكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويةُ، ص: 89، والفَيّوميُّ، المصباح المنير: (سمع)، والهَرَوي، حدائقُ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 20/ 187.

(2) ابْنُ عَطيَّةَ، المحرر الوَجيزُ: 1/ 238، والثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسانُ: 1/ 355.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمد: 16]، فَهُم في هذه المنزلة كالبهائم في عدم الانتفاع، وإن كان الفَرْقُ بَينَهُما بأنَّ مُسمَّى الاستماعِ موجودٌ في الكفرةِ دونَ البَهائِم[1].

(1) البَيْضاويُّ، أنْوارُ التَّنْزيلِ: 3/ 114، وابْنُ التَّمْجيدِ، حاشيَة على تفسير البَيْضاويِّ: 9/ 472.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"